محطات مضيئة

أسمى خضر [1]

السيّدة هيفاء البشير هي كالسنديانة في جذورها الراسخة في الأرض وفي الوجدان، وفي تاريخ الحركة النسائيّة الأردنيّة، وفي تاريخ العمل الاجتماعي.

هذه السيّدة، هي بصلابة هذه الشجرة العريقة وبقدرتها على مواجهة ومقاومة كلّ ما يعترضها من صعوبات؛ فهذه السنديانة لها فروعٌ عديدة وغنيّة تُظلل الجميع بمحبةٍ ورفق، ولكنْ أيضًا بحزمٍ وصلابة وبقدرة على وضع الأمور في نصابها دائمًا، والتوجّه الدقيق نحو الإنجاز المُتقن في كلّ ما تقوم به. هيفاء البشير التي عرفناها شابات وهي تتصدّى لقضايا في المجتمع، قضايا لا يمكن القول إنّها كانت مطروقةً وإنما كانت رياديّةً في تناولها للعمل الاجتماعي، وحتى في تناولها لما يتعلّق بشؤون المرأة؛ هي التي مثّلتنا مبكّرًا كأوّل عضوةٍ امرأة في مجلس أمانة العاصمة أو مجلس أمانة عمان، وهي السيّدة التي مثّلتنا في المجلس الاستشاري، وهي السيّدة التي رافقتنا في معظم المحطات التي عشناها في الحركة النسائيّة، بدءًا من وجود دائرة للمرأة في وزارة الشؤون الاجتماعيّة والعمل، مرورًا بكلّ المحطّات التي تَلتْ.

السيدة هيفاء البشير التي تعلّمنا منها العمل بروح الفريق، وتعلّمنا منها أنّ القيادة هي في ريادة الطفل وليس القول، وأنّ العمل الجادّ العلمي هو ما يجب أن يفرض نفسه في نهاية الأمر. السيدة هيفاء البشير بالنسبة لي كانت النموذج والأستاذة في مجال التطوّع والعمل الاجتماعي الذي لا ينتظر سوى تحقيق تحسّن في حياة من حولها وفي حياة مجتمعها.

(1) ناشطة نسائيّة وحقوقيّة/ وزيرة الثقافة السابقة.

هذه السيّدة التي قالت لي يومًا إنّك تبدعين في الارتجال؛ منعتني حتى من كتابة كلمة بحقّها خطيًّا، وأتوق إلى أن اكتب الكثير عن هذه السيّدة التي زاملتنا في مجالات عديدة، ونعتز ونفتخر بأنّها كانت في الهيئة الاستشاريّة لجمعيّة تضامن، والجمعيّة تعتبرها واحدةً من السيّدات اللواتي نستلهم سيرتهنّ في العمل.

كان لها تأثيرٌ كبير في «عقلنة» أداء جمعيّتنا وفي عقلنة خطابنا وفي جعله قابلًا لأن يحقق إنجازات؛ لأنّها من تعلّمنا منها الذكاء الاجتماعي والذكاء العاطفي والذكاء السياسي، فهي أبدًا لم تتوانَ في أيّ محطة اجتمعنا فيها للتعبير عن موقف وطني تجاه فلسطين أو تجاه العراق أو أيّ منطقة عربيّة، فهي عروبيّة بجدارة كلما تطلّب الأمر ذلك، وهي تنتصر لقضايا المرأة، إذ طالما كانت لا تغيب أبدًا عن أيّ ملتقيات أو منتديات تُدعى إليها، فلها دائمًا الإسهام القيّم والجوهري في كلّ الحوارات التي تدور.

لطالما التقنيا لصياغة بيان أو لمعالجة ومناقشة مشروع قانون أو لطرح فكرة جديدة نطالب بها ونعتبرها ضرورية لتمكين المرأة. ولم يكن وجودها دائمًا إلا إضافة قيّمة جدًا للنقاش الذي يدور، ودائمًا لها قدرة على إضفاء الواقعيّة على النقاش، الواقعيّة التي يجللها الأمل والطموح، وواقعيّتها ليست أبدًا من تلك الأنماط التي تقبل بالواقع المر، لكنّها الواقعيّة التي ترى الخطوات التي يمكن أن تحقق النجاح، والخطوات التي يمكن أن تتواصل بها.

أذكر أنني حين توليت رئاسة اتحاد المرأة الأردنيّة، وكان اسمه «اتحاد المرأة في الأردن» أو «الاتحاد النسائي في الأردن»، كانت ترأس الاتحاد النسائي الأردني العام، وكان يبدو ظاهريًا أنّ هناك خلافًا كبيرًا بين الاتحادين، وأذكر أنني قابلتها في محاولة للتعاون وإيجاد طرق لحلّ إشكالية وجود اتحادين في البلد الواحد، وما وجدتُ منها إلا كلّ تفهّم وكلّ استعداد وكلّ رغبة في تجاوز هذه العقبة وفي إعادة بناء العلاقة على أساس التعاون. واستطعنا في مرحلة محددة من عمر الاتحادين أن نحقق تقدّمًا في التعاون، وأن نحقق

محاولة للوصول إلى رؤى مشتركة، وهذا التفاهم والعلاقة التي لا تفسد للودّ قضية ما زالت قائمة بين الاتحادين والمؤسسات والمنظمات النسائيّة، لكنّ السيدة هيفاء البشير كانت على استعداد للتقدم خطوات أكبر وأوسع في هذا الاتجاه لو أتيح لنا الاستمرار في مواقعنا بالنسبة لي وبالنسبة لها..

أيضًا السيدة هيفاء البشير سيّدة تجمع ولا تفرّق، فهي طالما حاولت أن تجمع الجهات المختلفة، وأن تجد القواسم المشتركة التي يمكن أن تساعد على إحقاق خطوات إلى الأمام وعلى ترك الخلافات جانبًا والتقدّم نحو الإنجاز.

هذه السيّدة علّمتنا أنّ الإنجاز تراكم، لكنّه تراكمٌ يحتاج إلى الصّبر والمثابرة والقوّة والعزيمة والإرادة والصلابة، وهي تميّزت بكلّ هذا، وهي التي كانت دائمًا ما تأتي لتضفي على أيّ جلسة أو أي لقاء أو نقاش وأيّ بحث، هالة من النّور الذي يجعل الرؤية أوضح، ويجعل التقدّم إلى الأمام أكثر واقعيّة، وهي التي كانت دائمًا، بما في جعبتها من آراء وأفكار، قادرة على أن تغني أيّ حوار في أيٍّ من الموضوعات التي كنّا نناقشها معًا.

السيّدة هيفاء البشير واحدة من أعمدة الحركة النسائيّة الأردنيّة، وواحدة من رائدات هذه الحركة، وواحدة من اللواتي استطعن بكلّ جدارة أن يجعلن الطريق الوعر ممهدًا للبنات وللحفيدات، وهنا نرى الحفيدات اللاتي أغنين حياة «أم مازن» ينتشرن في مواقع مختلفة، ولا أعني فقط الحفيدات البيولوجيّات، وتمنياتنا لهنّ دائمًا بالتفوّق والنجاح، لكن أيضًا لبناتها الكُثُر اللواتي عملن في إطار عملها وبرامجها ومشروعاتها ومبادراتها، واللواتي تعلّمن أن لا مستحيل في قاموس من يملك الإرادة.

نحن أحوج ما نكون في مثل هذا الوقت إلى سيدة مثل هيفاء البشير، نحن بحاجة إلى هذه الروح المفعمة بالأمل رغم كلّ الجراحات ورغم كلّ الصعوبات التي يمكن أن تواجهها امرأة مرّت بكلّ ما مرّت به هيفاء البشير.

«أم مازن» التي كانت دائمًا تعطي الثقة لمن حولها بأنه لا شيء من المرّ يبقى على حاله، ولا شيء من الجمال والمحبّة والنجاح يستحيل على من يسعى إليه، ولذلك استمعنا إلى ما استمعنا إليه طول هذا اليوم، وسنستمع كثيرًا ولن نفي هذه السيّدة العظيمة حقها في أن نقدّمها للأجيال كنموذج يحتذى به. والسيدة أثبتت بالدليل وليس بالخطاب ولا بالقول أنّ الإرادة الصّلبة تجعل الجهل علمًا، وتجعل الفقر غنى، وتجعل الألم محفّزًا، وتملأ الكون حولها بالفرح والإنجاز، وتجعلنا جميعًا نتفاءل بأنّ الحياة جميلة، وبأنه يمكن أن تكون أجمل بوجود أم مازن ووجود هذه الروح الرافعة التي لم تتوان يومًا عما يمكن أن يقوم به أي إنسان. ووطننا بحاجة إلى عشرات من أم مازن، وإلى العشرات من أعمالها ومبادراتها ونجاحاتها التي نريد لها أن تستدام، والتي عملت هي بجد من أجل أن تكون مبادرات مستدامة، وهي بهذا مهدت لمواطن مؤثر في مجتمعه أو مواطنة مؤثرة في مجتمعها، وحتى أي إنسان يريد أن يجعل الإنسانيّة أقلّ بشاعة مما نرى، وأقلّ قلقًا مما نرى، وأقل حزنًا وألمًا وأكثر تفاؤلًا بأنّ القادم يمكن أن يكون أجمل، لأنّ هناك أرواحًا رائعة عظيمة مثل روح السيّدة هيفاء البشير التي تجعلنا دائمًا نبتسم ونقول للصعوبات: لا يمكنك أن تنتصري علينا. شكرًا لكم وشكرًا لمؤسسة شومان لتكريمها ضيفة العام الجديرة بالاحترام.